

## أيديولوجيا الأحزاب العراقية وتحولاتها البراغماتية

م.م أحمد عبد الكريم عبد الوهاب

### وحدة البحوث والدراسات السياسية

مرادي من هذه الورقة هو تقديم تصور لأهم ملامح الأيديولوجية لدى الأحزاب العراقية وتحولاتها البراغماتية التي فرضتها التحولات التاريخية خصوصاً تلك التي رافقت التغيير في قمة هرم الدولة العراقية بعد عام 2003 مما أدى إلى تغيير مسار الأحزاب العراقية من دور المعارضة إلى دور التنافس على السلطة ومن ثم اعتلائها.

### أولاً: الأيديولوجيا

وهو مصطلح لاتيني الأصل استخدمه لأول مرة الفيلسوف الفرنسي (دي تراسي) في مطلع القرن التاسع عشر بمعنى (علم الأفكار)، وكشيء مناقض للعالم المحسوس، وبعد حقبة طويلة من سوء الاستعمال والتناقض بين المعنى اللغوي والمعنى المفاهيمي استطاع كارل ماركس استخدام المصطلح في كتابه الأيديولوجية الألمانية المنشور عام 1829 بمعنى مجموعة الأفكار والمعتقدات التي تسود مجتمعاً ما أو جزء من هذا المجتمع كأن يكون جماعة ما بفعل الأحوال والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة آنذاك ضمن ظرفها الزماني والمكاني. ويمكن الأخذ بأكثر من تعريف للأيديولوجية على سبيل المثال لا الحصر، فالأيديولوجيا أنساق فكرية متعددة، تحمل رؤى وتصورات وحلول لمشكلات الحياة المختلفة، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، تعدُّ معتقياً بخلص دنيوي في حالة كون هذه الأيديولوجية تستمد رؤيتها وتصورتها من مبادئ وضعية، وتعدُّ معتقياً بخلص دنيوي وأخروي في حالة كون هذه الأيديولوجية تستمد رؤيتها وتصورتها من مبادئ وأسس دينية. ويمكن القول بشمولية ودقة أكثر بأن الإيديولوجية تشير عادة إلى منظومة فكرية ورمزية مبنية على جملة من الأسس والمسلمات التي تتخذها الجماعة البشرية التي قد تكون جماعة دينية أو عرقية أو طبقية أو جهوية أو فئوية منطلقاً ومنهجاً لها في العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في مرحلة تاريخية معينة، وتسعى هذه الجماعة إلى دعم هذه المنظومة الفكرية والرمزية ونصرتها بكل السبل

المتاحة إزاء المنظومات الفكرية والرمزية المنافسة لها داخل المجتمع، وهذا يوضح الجانب الصراعى الضمنى العميق المتلازم مع الجانب السياسى الظاهرى للأيدىولوجيا، وهنا يتجسد بوضوح دور الأحزاب السياسية فى تجسيد الأيدىولوجيا على أرض الواقع العملى (الفعل السياسى).

### وظائف الأيدىولوجيا

تختلف وظائف الأيدىولوجيا على المستوى السياسى والدعائى بين مرحلة ما قبل تسلّم السلطة من قبل معتقيها ومرحلة ما بعد تسلّم السلطة، ففي المرحلة الأولى تعمل الأيدىولوجيا بواسطة معتقيها على نقد السلطة القائمة ونقد الأيدىولوجيا التى تستند إليها تلك السلطة لغرض إظهار تناقضاتها وعيوبها وتعبئة الرأى العام لإزالتها والحلول محلها، إما من خلال الانتخابات إذا كان الفضاء السياسى الحاوى ديمقراطى، أو بالقوة عن طريق الثورات والانقلابات العسكرية بخلاف ما سبق. وما أن يتحقق لها ذلك تبدأ وظيفة المرحلة الثانية التى سيكون أهم مظاهرها الدفاع عن السلطة الجديدة وإجراءاتها وإنكار أخطائها أو تسويغها أو التهوين من شأنها إن لم تستطيع أن تدافع عنها (أى التبرير)، ويرافق مع ذلك دعوة الناس إلى دعم السلطة القائمة الجديدة من جهة والتحلى بالصبر وتفهم الظروف قبل المطالبة بتحقيق الوعود التى بذلت قبل تسلّم السلطة وعدم الانجرار مع خصومها الأيدىولوجيين أو الاستماع إلى أقوالهم. ولعل هذا الفهم يكشف الطابع الفعلى والتبريرى وغير الموضوعى للأيدىولوجيا وافتقارها إلى البعد الأخلاقى بحكم ارتباطها بالسياسة وهذا الكلام وصف للأيدىولوجيا وليس نقداً أو تقويماً لها. إن الاستئثار بالسلطة متأصل فى الأيدىولوجيا وهو إحدى سماتها الأساسية سواء كانت شمولية أم ليبرالية، كما أن مكنم الخطر الأكبر هو النزعة الاستبدادية التى تبدأ عادةً داخل الجماعة الأيدىولوجية عينها، ثم تمتد لتشمل المجتمع برمته حين يتاح للجماعة الأيدىولوجية المعنية أن تتبوأ السلطة، خصوصاً إذا كانت هذه الجماعة محكومة داخلياً على نحو استبدادى وتفتقر إلى الديمقراطية وحرية الاختلاف بين المنخرطين فيها (أى داخل المنظومة عينها) مثلاً لذلك الكثير من الأحزاب العراقية إذ لم تجرى أى انتخابات داخلية فيها منذ عام 1992. ولا يمكن

قياس قوة الأيديولوجية ورسالتها بعملية مقارنة مع مثيلاتها حيث يستوجب ذلك حيادية الباحث وهذا أمر صعب كما أن قوتها تكمن في قدرتها على ممارسة (دوغمائية فكرية لمعتقيها) تجعل من الصعب على معتقيها ممارسة أي مقارنة علمية مع الأيديولوجيات الأخرى (وهذا أهم أسباب القوة والمنعة فيها).

### ثانياً: الأحزاب السياسية (الأحزاب العراقية على وجه الخصوص)

الحزب تنظيم اجتماعي - سياسي يمثل شريحة اجتماعية (عرقية، طائفية، دينية، طبقية) في مجتمع ما أو ربما كتل اجتماعية متناغمة ويدافع عن مصالح الكتل الاجتماعية التي يمثلها روحاً ومضموناً، ويجاهد من أجل انتصار أهدافه وغاياته من خلال الوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها، وهذا التعريف أقرب لروح الأحزاب العراقية من التعريف الأكاديمي له. ولا يمكن أن يكون الحزب هو الشعب بأكمله، وبالتالي لا يعبر الحزب عن مصالح جميع أفراد المجتمع وتوجهاتهم الأيديولوجية مهما حاول أن يُظهر ذلك في خطاباته وبرامجه ورؤاه، إلا إذا كان الشعب كتلة موحدة المصالح وخال من التناقضات الأيديولوجية وهذا أمر محال (غياب الأحزاب الجماهيرية). وفي سياق هذا المفهوم نجد أن ظاهرة الأحزاب السياسية في العراق بعد عام 2003 وتفكك أطر الهيمنة التقليدية التي كان يفرضها النظام السابق، فتحت الباب أمام محاولة إيجاد صياغة جديدة لمفهوم الحزب السياسي ومفهوم الأيديولوجية المعتنقة من قبل هذا الحزب أو ذلك تتناسب مع الوضع الجديد، أي التحول من المعارضة إلى المشاركة بالسلطة أو الهيمنة عليها، فظهرت على الساحة الاجتماعية والسياسية أحزاب ذات مرجعيات نخبوية أو دينية أو طائفية أو عشائرية وقبلية، بالإضافة إلى الأحزاب ذات العمق التاريخي والأيديولوجي والتي أبدت برغماتية عالية في كثير من الجوانب خصوصاً بوجود ضغط البنية الدينية العميقة والمؤثرة في المجتمع العراقي وتأثير مؤسساتها التشريعية والفقهية في قناعة الرأي العام، وكذلك ظهور أحزاب وحركات ذات توجهات ليبرالية وعلمانية أخذت حيزاً من ثقة المجتمع العراقي رغم أن طبيعة المجتمع العراقي المغلقة لا تسمح بوجود الظاهرة الحزبية

بحملتها الأيديولوجية خارج مؤثرها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي (الليبرالية والعلمانية).

### ثالثاً: التحولات البرغماتية لأيديولوجيا الأحزاب العراقية

يعتمد نجاح أي أيديولوجيا في قدرتها على التفريق بين مبادئها العامة وبين السياسات العامة، ومرونتها في فهم المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية والانفتاح عليها والتعامل معها بشكل يضمن المصالح الوطنية. ويبدو للمتابع أن أيديولوجيا الأحزاب العراقية قد استوعبت بشكل لا بأس به عملية التفريق والتمييز بين أحكام ومبادئ أيديولوجيتها وبين السياسات العامة ومن تتبع برغماتية أيديولوجيات الأحزاب العراقية يمكنه تأشير هذه التحولات البرغماتية بجلاء على مدار السبع سنوات الماضية من حيث:

1. التأكيد على الهوية العراقية للكتل والقوائم المشاركة في الانتخابات البرلمانية 2010 والابتعاد عن السياق الطائفي للانتخابات في 2005.
2. تقبل معظم الأيديولوجيات في العراق للديمقراطية أما باعتبارها جزءاً من أيديولوجيتها أو قبولها كآلية لاستلام وتداول السلطة حتى لو كانت تتعارض مع أيديولوجيتها.
3. قيام بعض قادة الأحزاب والحركات العلمانية بزيارة وطلب المشورة من قبل المراجع الدينية في النجف الأشرف (الأستاذ أياذ علاوي 4 زيارات)
4. استقالة رئيس الحزب الإسلامي (الأستاذ طارق الهاشمي) وانتقاله إلى قائمة علمانية قبل انتخابات 2010 رغم اعتناقه لأيديولوجية إسلامية.
5. خطاب المالكي في 2009/3/30 (وحدة العراق وعرويته وسيادته خطوط حمراء) ودعوته إلى تعديل الدستور في الوقت الذي كان فيه حزب الدعوة أول الحائين على الإسراع بإقرار هذا الدستور.
6. إقرار قانون خصخصة مرافق الدولة من قبل كل الأحزاب السياسية العراقية وعلى الأخص أحزاب تتعارض أيديولوجيتها مع هذا القانون (الشيوعي/الدعوة عز الدين سليم).

7. رفع شعار دولة القانون من قبل حزب الدعوة بدل شعار الدولة الإسلامية أو أسلمة الدولة.

إن هذه البرغماتية تجعل الأحزاب العراقية تتدرج ضمن قائمة الأحزاب الانتقالية التي تقع بين الأحزاب الأيديولوجية المغلقة بالكامل وبين أحزاب المصلحة فلا هي عقائدية بالخالص ولا هي مصلحة حتى النهاية وإنما هي أحزاب انتقالية تجمع بين الأيديولوجيا والمصلحة.